عبد الباقي يوسف

سيمفونية الصمت

قصص قصيرة

مجموعة قصصية صدرت طبعتها الأولى في دمشق، عن دار المجد سنة ١٩٩٨

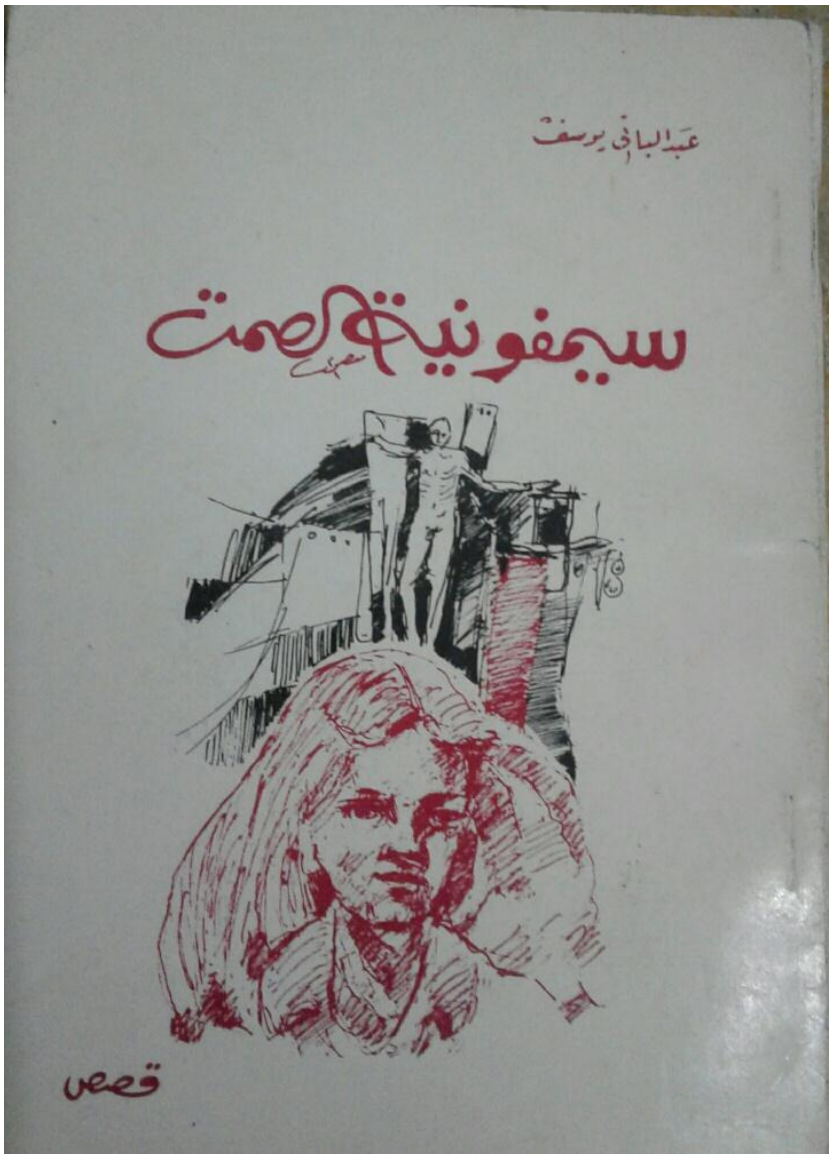

فهرس المحتويات

١ – سحابة من سماء جغجغ
٢ – عندما ترتاح الأرصفة
٣ – ليلة الصراع
٤ – طلع الخبز
٥ – هس .. أرجوك
٦ – غرف للإيجار
٧ – أحلام سعد
٨ – سيمفونية الصمت
٩ – صور من حياة عذراء مجنونة
١٠ – على أنغام تلك الموسيقا

سحابة من سماء جغجغ

كلنا هرعنا صوب دار عبده دون أن نعرف لِم ..
أمي لملمت أذيال جلبابها وهرعت ..
أبي قال وخطواته تسبق صوته : يا ساتر .
وفي الشارع الكل يهرول صوب دار عبده ، حتى القطط والدجاج والخفافيش .
فتاة منفوشة الشعر ، ممزقة الثياب ، مرت بجانبي

- ماذا حدث ؟

أجابت الفتاة مغتاظة كأنما بيني وبينها ثأر عتيق :

- حدث ك.. أمك .

وأخيرا وصلنا دار عبده ، حول الدار جمهور كبير من الأطفال والشبان والنساء والعجائز مع جمهور آخر من القطط والأغنام والخفافيش .
أمي دلفت إلى الحوش ، أبي راح يدس جسده بين جمع من رجالات الحي، ورأيتني أندفع بين زحمة النساء المتجمهرات ، ولم

ألبث بين أنفاسهن كثيرا حتى ترامى صوت عبده المختنق من حوش قريب : اتركوا يدي .. سأريهم مرجلتهم ..

وعلى الفور علا صوت آخر صوت عبده قائلا : ثلاثة رجال هجموا عليك في بيتك ، هذه ليست مرجلة يا عبده .

أحد أقرباء عبده ظهر في أول الشارع ولما رأى عبده اندفع نحوه لاهثا

- ماذا جرى يا عبده ؟

عبده يمسح الدماء المتناثرة على وجهه ويجيب : الجبناء هجموا عليّ في بيتي وضربوني يا حاج !

- تفو .. كله من وراء بنت الـ.... يا أخي طلقها .. كم مرة قلت لك طلقها ..

ثم سرنا خلفهما بخطا جنائزية حتى ابتلعنا حوش عبده ،ومن الخارج انفجر صوت طفولي يقول : جاءت سيارة الحكومة .

تشابكت النظرات ، خفقت بعض القلوب ، نهض بعضهم .

الجميع تقريبا يعرف (ت) ليس كونه ابن عم الثلاثة الذين ضربوا عبده ، بل لأنه يدير مكتبا حكوميا في مجلس المحافظة ، وهو يذكرك بشيوخ العشائر ، رجل طويل القامة ، له رأس صغير ، يكلله شعر أبيض بفعل الوراثة على جسد

نحيف ، وعندما يضحك يقفز إلى ذهنك مباشرة صوت القطار : هأ هأ هأ هأ هأ .. هي .. ي .. ي.. ي.. وهو من الذين لا يدخنون ، ولا يقبلون أكثر من كأس واحدة من الشاي ، وفي مكتبه تراه ببدلته الرسمية ،أما عندما يرجع إلى البيت فلا يمكن له أن يخلع الجلباب مهما حدث ، وكلام بطلنا يمشي على أقربائه وجيرانه إذ لا تمر حادثة إلا ويكون فيها وسيطا .

بعضهم يقول : أن هذا الاحترام لا يعود إلى شخصه ، وبعض آخر يقول : إن أباه أولى بمثل هذه المهمات .

وأذكر جيدا أن أحدهم قال لي قبل حوالي سنة ما فحواه أن الرجل شرير وقد سبق له أن عسّر معاملات الناس من خلال وظيفته .

وهنا في هذه الليلة قيل ، وقيل حتى جاءت الشرطة إلى حيث سيارة (ت) المتوقفة قرب دار عمه .

(ت) خرج فورا من باب عمه وقال لرئيس الدورية : سوء تفاهم صار بين الرجل وحماه وانتهى .

رئيس الدورية أجاب مبحلقا في وجهه : لا بد من كتابة ضبط يا أستاذ .

- أنا .. ألا تعرفني ؟!

- حتى لو كنت ابن .. سنكتب الضبط يعني سنكتبه .
- إذن تفضلوا سأوصلكم بسيارتي .

تطلع رئيس الدورية إلى عنصريه ، وإلى الجمهور الملتف حول السيارة هنيهة ، ثم صعد .

أحد أقرباء عبده بخفوت قال : لا تسقط حقك يا عبده .. الحكومة تأخذ حقك منهم ؟!

توجهوا بسيارة (ت) إلى المخفر . ولا نعرف تحديدا ما جرى في المخفر ، ولكن بعد ساعة واحدة سمعنا صوت السيارة ثانية ، وفي هذه المرة توقفت السيارة قرب بيت عبده !

(ت) أشار لأولاد عمه بالانصراف ، وبعجالة جر عبده من كتفه وانتحيا جانبا بعيدا .

تفرق الأطفال والنساء وبعض المرضى . . كل راح يمضي في الشارع الطويل تاركا خلفه السباب واللعنات .

وعاد الصمت يخيم بعد أن أقفلت الأبواب وأطفئت الأنوار .

وفجأة تناهى صوت عبده الخافت ، وتراءى من بين الظلام جلباب (ت) ، مرا من أمامنا ولم يسلما .. ولكننا رغم ذلك دخلنا خلفهما إلى الغرفة التي امتلأت حتى الكظة .

(ت) قبع في الوسط ، عبده قرفص إلى جانب صديق قديم له ، الشاهد قعد على ركبتيه قدام زوجته ، عجائز الحي توزعوا في الأماكن الفارغة ، وأقرباء عبده احتلوا زوايا الغرفة .

شاهدنا العيان مد يده إلى جيبه ، وأخرج علبة سجائر ، ثم شرع يدور بها على الناس ناسيا أزمة خلق الله على المؤسسة للحصول على علبة تبغ واحدة .. وأخيرا فغرفاه وقال وهو يشعل سيجارته : سمعت صراخا من بيت جارنا عبده ، فركضت وركضت الحرمة معي .. وألقى نظرة خاطفة إلى زوجته ثم استأنف بعد أن رشف نفسا طويلا من لفافته : ولو أن الأستاذ موجود .. فأنا رجل حقاني وأقول الحقيقة .. نعم ، رأيت ثلاثة رجال يقعون على عبده بالضرب الموجع ولم نعرف أنهم أشقاء زوجته إلا بعد أن جرجرنا عبده من بينهم أنا والحرمة ..

وقاطعه (ت) بصوته القوي المجلجل : لا تكبرها يا رجل .. قلنا سوء تفاهم .. وها هو الرجل أسقط حقه .. وهنا تدخل صديق عبده قائلا : أكبر سوء تفاهم يحل بالعقل لا بالقوة يا أستاذ .

وقال شاب أحمق : لعنة الله عليهم جميعا .

نهض الحاج ، وقد بدا الخوف واضحا على وجهه ، وقال :

اخرس يا ابن الكلب !!

وعلى الفور قالت عجوز بلسان متراخ : صحيح يا حاج .. اللعنة وقعت على جميعهم من أفواه الكبار والصغار .

ورأسا قال أحد شيوخ الحي القدامى : لقد أخطأوا بحق عبده حينما هجموا عليه في بيته وعليهم أن يدفعوا الثمن .

تنفس عبده الصعداء قائلا : ألم تحدث بينك وبين زوجتك خلافات يا أستاذ ؟

وقبل أن يكمل حديثه قام (ت) بحركة لا تليق به .. فتعلقت أنظارنا بشفتيه ، وعند عتبة الباب ربت على كتف عبده ، لكنه لم ينبس ببنت شفة .

عندما ترتاح الأرصفة من وطأة الأقدام

قلمي ينزف كبعير قُتل لتوه ، صفحاتي تكتظ بالأحرف الأبجدية ، كل الكلمات تبدو باردة هذا المساء ، تبدو بلا روح ، بلا نبض ، بلا دماء.
أتمدد في الفراش ، أغمض عيني .. لا .. لا .. ثمة شيء يلح علي ، وعليّ أن أكتبه .
أحمل القلم من جديد ، الكلمات تتساقط منه مثلما يهطل المطر .
لم أقل ذلك الشيء الذي يلح عليّ وأود كتابته !!
أخلع الصفحات من الدفتر المدرسي ، أمزقها إربا إربا :
يا إلهي .. أحس بالإجهاد ، رأسي يدور ..
أرنوا إلى الساعة : إنها الثانية بعد منتصف الليل .
كم أود أن أغط بنوم عميق ، لكن لما تزل الأفكار تدور في رأسي .
ما العمل ؟
أتذكر .. عندما كنت في سن المراهقة قبل عشرة أعوام وفي مثل هذه الحال كانت عندي أحلام اليقظة فتاة ، أجمل فتاة على وجه المعمورة وكنت أضعها في فراشي .
ثم لم ألبث أن أراني وقد استيقظت نشيطا .

إذن هل أكرر الأسطوانة ؟؟

لا أعتقد .. سن المراهقة شيء ، والآن شيء مغاير له تماما .

والحل ؟؟

أشرد بذهني .. أمد يدي تحت المخدة ، أسحب علبة السجائر ، وأقوم من الفراش ، أفتح الباب ببطء وأخرج إلى الشارع .

المدينة ترقد بأمان وحبال الصمت تلفها لا همس ، لا ضجيج ، لا حراك ، أتسكع بخشوع في الدروب الخالية من حركة الإنسان ، كلاب تدور حول كوخ للدجاج ، قطة سوداء قاتمة تموه فوق حائط طيني عتيق . ولا شيء غير سيمفونية الصمت وظلام الليل ، حيث تتحول المدينة إلى قرية مهجورة شرب الزمان فيها وثمل منذ العصور البربرية . بحركة لا إرادية توقف عن المسير . أحس بوطأة أقدام تدب بالقرب مني . أقترب من عمود كهرباء ، أتخذه ستارا لجسدي وأبحلق في العتمة بصمت ، – باب ينفرج قبالتي . ثلاث قامات تخرج من الباب بحذر .. أرنو باهتمام وإعجاب فأتمكن من رؤية صندوق .. جرة غاز .. مسجلة .. حقيبة نسائية .

أهمهم في سري وأمضي (دع الخلق للخالق)

عند بداية شارع آخر أشعل سيجارة من الحمراء القصيرة ويلفت نظري بصيص نور ، وأقول : (دع الخلق للخالق) لكن الفضول يدفعني ،

وحب الاستطلاع يزجيني أكثر .. شباك شبه مفتوح وإذا ما رفعت رأسي سأرى ما بالداخل . أمد يدي ، أتمسك بزاوية ، وأرفع جسدي مستعينا بعضلات يدي . لم أر بعد . ألصق قدمي بالحائط . أمد يدي الأخرى وأرفع جسمي ثانية . شق النافذة ينفتح بسرعة جنونية .. يرتطم بالحائط ، وأسقط على الأرض منهوك القوى أحدهم يزعق . يعتلى جدار الشرفة . ينط ! وأركض بكل ما أوتيت من سرعة .. يضع ذيل جلبابه في فمه وكسهم طائش يلاحقني قائلا : توقف يا ابن الحرام !! وأستأنف الركض بسرعة أشد ، أراه مثل كلب مسعور يطير خلفي ، أتمايل إلى جهة النهر ، أختفي تماما تحت جنح العتمة ، أرقب مجيء الرجل ، يصل ، يتوقف على الطريق ، يحملن إلى الوادي ، ولا يراني تتراخى مفاصلي ، يجف لعابي ، وتصطك أسناني . (ما العمل ؟؟) ربما ابن الكلب قرر البقاء هنا حتى بزوغ الضوء !!

في هذه الحال ما علي إلا عبور النهر إلى الجهة الأخرى منذ الآن وأنفذ بجلدي السليم .

قلت : سأجرب طريقة (جهنماوية) معه ، وعلى الفور مددت يدي إلى حجر كبير ، رفعته . وبعزم قذفت به صوب الرجل ، ارتعد الرجل وصار يبحلق حوله بسرعة مثل دجاجة خائفة ، وبدون تسويف بدأ

يتراجع إلى الوراء ، أرفع رأسي ، ويتراجع ، وأقف على قدمي ، ويتراجع حتى توارى عن ناظري بياض كنزته .. !
ومن جديد اعتراني شعور من أزيحت عن ظهره صخرة كبيرة وعدت أتنفس ملء حريتي ، وحقا ما أروع أن نتنفس بحرية ونشرب السجائر بحرية . وبقدرة قادر ترامى من حديقة النهر دوي امرأة يا إلهي ماذا جرى ؟؟ سأوقع نفسي في ورطة !! وهل هذا صوت إنسان أم صوت جن .. الجن .. الجن .. الجن . يقال أنهم يحتفلون بعد منتصف الليل على ضفة النهر في الحديقة . والله أن أسمع بدون رؤية محال . سأرى حتى ولو كلفني ذلك نصف عمري .. وأزحف باتجاه الدوي ! ، أدخل الحديقة ، أدنو من الدوي . الآن لم يبق بيني وبين مصدر الصوت إلا عدة خطوات !! يا سلام . امرأة تتمسك بكتفي رجل قزم جدا جدا .. وواضح أن الرجل يحمل على ذراعيه .. المرأة تكفر ، تسب ، تشد شعرها ، تلطم خديها ، والرجل يصر على الذهاب إلى النهر وبيديه ذلك الشيء الذي لم أتمكن من رؤيته ، وعقب همس وكلام وشتائم وضرب يهرول الرجل القزم بخطوات سريعة إلى النهر . يختفي قليلا ويرجع كالمصعوق ، يجرجر المرأة معه ، ويختفيان في ظلام حالك أدير ظهري وبخطا باردة أتجه صوب البيت شاحب الوجه

مرهق الذاكرة الضوء يطلع وأدس جسدي في الباب ، وتمتلئ الشوارع بالصافرات .

ليلة الصراع

كفي في جيبي . أصابعي ترص على الورقة النقدية ذات الليرات العشر ، وأتكسع في الشوارع ..

ماذا سأشتري بعشر ليرات في هذه الليلة غير الطبيعية ؟! ليلة الشراء ، وليلة الغلاء الفاحش ، الناس كالنمل تهجم على المواد كافة ، قشرة

برتقال تقع على رأسي ، التفت ؟ تضحك : الله جابك يا حلو !!

امرأة مطلقة غير جميلة تعرفت بها قبل ثلاثة أعوام في القطار .

- " الله جابك يا حلو " !

نتصافح .

- أتعزمني الليلة يا حلو ؟

بصراحة أريد أن أعزمها .. ولكن العزيمة التي تقصدها تتطلب على الأقل خمسمائة ليرة سورية . لحومات ، فاكهة ، خمرة .. الخ .

وتردف : عندك غرفة مستقلة على علمي ؟!

يا للمصيبة ! من أين ظهرت لي هذه البلهاء ؟
احك . أنت أخرس !!
من أين يا إلهي أحصل على خمسمائة ليرة ؟ سأبيع الساعة . من سيشتري ساعة في هذه الليلة ؟!
لابد من حل قبل أن تغادرني المرأة وبذلك أخسر أجمل سهرة في حياتي . نعم لا بد أن تكون سهرة رائعة فيها الرقص والحب وأشهى الطعام وألذ الشراب !
ابن الكلب معلمي قال هو الآخر مفلس الليلة ..
- ستعزمني أم لا ؟!
- طبعا يا حبيبتي وكيف لا .. ثلاثة أعوام لم ير أحدنا الآخر لا بد من العزيمة ؟!
وأرمق كرشها بنظرة خبيثة . يصحيني رفيق قديم (فرجت ؛ أتقدم يمد يده . أتمتم في قرارة نفسي : سأطلب منه مبلغا . يقول ببسمة مسطنعة : أهلا بأعز أصدقاء الدراسة .
سأفاتحه بالموضوع ، المرأة تنتظر ، ولا بد من النقود .
يقول صديقي : يقال " أن الصديق عند الضيق " .

وجهي يصفر . أفهم تماما ما مهد له صديقي لذلك لأقاطعه وأسبقه القول : هل أرى لديك خمسمئة ليرة يا صديقي العزيز ؟

يزفر بعنف من خلال أنفه .. يضرب كفا بكف ، ويمشي كالمخبول وهويكلم نفسه !!

ألتفت إلى المرأة .. لا أراها ! وأرجع إلى غرفتي خائبا منزعجا .

أمام الباب توقفني صاحبة البيت : ألا تحتفل بهذه الليلة ؟

أنظر إلى يدي الخاميتين ولا أرد !!

- ولكن جيرانك الشباب كلهم يحتفلون في غرفهم وسألوا عنك قبل قليل ..

أفتح باب الغرفة . أفرك عيني : سأنام باكرا ..

أقفل الباب على نفسي . أضغط على زر (التلفزيون) فتتراءء مذيعة ببسمة طفيفة تقول : أعزائي الساهرين أعزائي المشاهدين بعد قليل نودع عاما ونستقبل آخر . وتزور (الكاميرا) الشوارع والبيوت والذين يخجلون من الوقوف أمامها .

إذا لا بد من التغيير هذه الليلة . إنه يزحف إلى كل شيء ويغسل البيئة من فوق إلى تحت في (طشت) الليلة الأخيرة من العام المنصرم .

عام بلياليه وأيامه وأجمل لحظاته ، بأفراحه وأحزانه ، سنة من الدموع والضحكات والولادة والموت . سوف تنهيها ليلة واحدة ، سوف تغتالها على أنغام أرعب موسيقى تعزفها الأوتار الحساسة في قلوب البشر صراع رهيب حقا ، كانت أمي تقول : نم باكرا .. سيجن كل من يرى هذا الصراع ..

نم باكرا كيلا تراه . وكنت أنام باكرا . أما الآن فلن أنام ومن حقي أن أرى هذا الصراع .

- بعد قليل سينقلع عام ويحل آخر .

بعد قليل .. قل .. يـ .. ل .. الأصوات تعلو ، الضجيج يمزق أحشاء الصمت ، العيارات النارية تنغرز في جسد الليلة .. انقلعي ..

انقلعي لم يعد لك مكانا بيننا . ويحتدم الصراع ، السنة الجديدة تشن هجوما بكل جبروتها ، والليلة تقاوم ، تقاوم حتى آخر أنفاسها ، الصواريخ الورقية تخترق أمعاء الليلة ، الرصاص ، الصلوات ، الدعوات ، أجراس الكنائس ، النيران ، والعام الجديد بـ (٨٧٦٠) ساعة لكن الليلة لما تزل تقاوم .

الضجيج يعم الكون . كل الكون وتحين لحظة النتيجة أمام جمهور الكون . أريد أن أرى . يهمني أن أرى أرفع صوت (التلفاز) كله

وبصخب أرقص . ينطفئ النور وأرقص ، طرقات قوية تقع على الباب وأرقص . الباب ينفرج . الشموع تحاصرني من كل صوب وحدب وصوت جماعي كصوت الكورس يقول :

كل عام وأنت بخير

طلع الخبز

الليل وصوت المزاريب .
دخان التبغ وروائح الجسد البشري
الصمت وقيثارة (يوكيم) الحزينة
وحدها حبيبتي تستريح على السرير الصيني العتيق وإلى جانبها جثتي المتعبة يصارع مقلتيها النوم . بخفوت أهمس : نامي على شبابي ، وادخلي تحت جلدي ، (وتصبحين على خير) ، بنبرة دافئة تهتف : مثل أمي نفيسة ضع معصمك تحت رأسي واحك لي قصة للأطفال ؟
- بعد قليل حبيبتي ينهض الناس هنا لصلاة الفجر
وتستحم أجواء البيوت الطينية برائحة البن البرازيلي المعتق .
وأمريكا الآن توزع المنشورات السرية على جواسيسها وفي أزقة سان فرانسيسكو هذه الساعة الجميلة من عمر الصباح ، تختلط دماء العذارى بدموع المراهقين المتصوفين .
وليل باريس الآن .. ليل باريس الخجول يا حبيبتي يرفع الآن ستره عن بيوت الدعارة .

أما في فلسطين الآن يلملم الأطفال الحجارة من بين الطرقات والقرى ، وثمة جنازة تستريح على أكتاف النساء في شارع عمر المختار .

ويتوضأ آذان الفجر بالحجارة .

تستحم نواقيس كنيسة القيامة بالحجارة

ينبلج الفجر على أصوات الحجارة

وها هو ذا الضياء يتسرب إلينا من شقي النافذة هاتي معطفي وإبريق اللبن ؟ طلع الخبز ووصل اللبن وعليّ بالذهاب .

هـس أرجوك

كنت ارقب لحظة غياب الشمس بفارغ الصبر . وعندما يحل الظلام وترتاح الأرصفة من وطأة الأقدام أجوب ثلاثة شوارع حتى اصل إلى شباك منى ، ومنى هذه شديدة جدا في تمسكها بالعادات والتقاليد ، على قدر حرصها على سمعتها . وعندما نلتقي أثناء الليل لا تتفوه بحرف واحد ، وحين أنطق بكلمة فتقاطعني بمد كفها إلى فمي هس أرجوك

هذا الصنف من النساء خطير جدا وصعب جدا ، ولكن لا بد أن أجرجرها في الكلام هذه الليلة . قلت لها بجرأة : منى أريد قبلة ؟!

- لا يا عبد العزيز . لا ، القبلة تجرنا إلى أمور أخرى .
- ولكنني بشوق إليها .. ولا أريد غير قبلة واحدة .
- أنت أحمق لو صدقت ذلك . القبلة تجرنا إلى أشياء كلانا في غنى عنها .

ثلاث ليال لم أرها وجهي . وقد احتلتني حالة من الأرق والحزن . فأنفر من أختي وهي تقدم لي الطعام ، ولم أعد أغسل وجهي في الصباح !!

في أمسية لم أتمالك نفسي فرأيتني أقف قدام شباكها كمن يسأل الصفح بعد جناح عظيم . وكلما رفعت بصيرتي إلى الشباك اجتاحت عيني موجة عارمة من الدموع . فتحت الشباك وألقت نظرة إلى الشارع ، خطوت بضع خطوات ، قالت بدون مقدمات: خذ القبلة التي فرقتنا ثلاث ليال يا غبي .

وكمن وقعت عليه الصاعقة ، لم أرد ، أردفت : تعال ،، خذ . ومدت رأسها من شقي النافذة .

أحسست بدوار في رأسي ، وبكلمة أكبر من مساحة الحنجرة توقفت في سقف حلقي . وأعادت القول للمرة الثالثة بصوت مثقل بالبكاء . رفعت رأسي وكان الوجه يدنو من فمي . رفعت أكثر ومع نقطة التلاحم انتابني نوبة حادة من التقيؤ ، ونفسي غدت ترفض القبلة بعنف وفي رفة جفن رأيتني أهرول كمسطول فقد طريقه .

شوارع الأحياء تستقبلني ، تودعني ، وأسير كمن في حداد شارد البال . البرد يلفح وجهي كالسوط ، والليل يتلاشى مفسحا الوقت لخيوط ذهبية تعانق الأفق وتتلألأ كدموع عذراء بين وريقات الأشجار .

الإنسان الوحيد الذي أئتمنه أسراري هو أحمد .

وعدت أدراجي إليه . دخلت بثقة بعد أن خبطت على الباب فالفيتني أمام امرأة بقميص النوم . قالت المرأة بذعر :

- من أنت ؟ ماذا تريد ؟؟!

صوتها أفاقني من حلم اليقظة ووقع على سمعي كالصاعقة تطلعت إلى الباب وقلت بلهجة من يعرف إجابة قوله :

- هل أحمد في البيت ؟!

وتراجعت إلى الوراء أحاول الخروج . دنت المرأة وبعزم صفقت الباب كأنما تطرد متسول قذر وانفجر صوتها المفعم بالغضب : بيته في الطابق الثاني .

اسم منى صار يستفزني . وسيرتها تذكرني بذاك الموقف الذي لن أنساه ما حييت . فقد حرقت رسائلها وصورها وقطعت كل شيء يذكرني بهذه الفتاة !

لا أدري بالضبط أي سبب دفعني إلى هذا الموقف العدائي خاصة وأن المسكينة – كما قلت لك – أعطتني القبلة .

دعك من هذا الآن . فقد قال لي أحمد وهو بكامل حيويته : لقد أعطيت رقم هاتفك لحبيبتي الجديدة .

- بل لمغامرة جديدة ..
- لا .. ليست مغامرة !

قال لي بشيء من الانفعال ولم أعرف أنه على ذلك القدر من الخبث والذكاء معا وسيوقعني في فخ لن أحسد عليه وإليك ما حدث بالتفصيل .

٥

جرس الهاتف رن .. رفعت السماعة

- من ..
- هل أحمد عندك ؟
- لا .. من يتكلم ؟

- قل له (هي) حكت
- مع السلامة .

الغريب في الأمر أن صديقي غاب نحو أربعة أيام وخلال هذه الأيام تلقيت أكثر من عشرين مكالمة هاتفية !!

وبدون سابق معرفة دخل أحمد فباشرته بالقول . كيف تعطي رقم الهاتف لحبيبتك وتغيب أربعة أيام !!

- حكت ؟
- لقد أتعبتني بهواتفها .
- سأجيء عند الغروب وأمضي السهرة معك وراح أحمد على أمل العودة مساء ، ولم يلبث أن رن جرس الهاتف . بالتأكد (هي) قلت ذلك في سري ورفعت السماعة قائلا : (هي) أليس كذلك ؟؟
- – وكيف عرفت ؟
- لم أعرف ، بل أسأل
- ومن أنت ؟

قلت مازحا (هو) . واستأنفت على الفور .. أأصيح أحمد ؟؟

- لا ... !!!
- إذا ؟!

وقالت بتلعثم : اعتدت على سماع صوتك ..

- لكن أحمدا يحبك بجنون .
- دعك من هذا . ماذا تصنع الآن ؟
- أقرأ ، وسوف أنام بعد قليل
- ماذا تقرأ ؟

رفعت الكتاب وقلت : أقرأ قصة لعبد الحليم عبد الله ، أتعرفين ماذا يقول هذا الكاتب ؟

- لا ..
- يقول : (لا تجعلنا نحب من لا يحبوننا حتى لا تشقينا بالحب مرتين يا إلهي) .
- إذا تؤمن بشيء اسمه (حرية المشاعر) دعني أراك بحق أقدس ما لديك ؟!
- إذا كان الأمر كذلك .. سأحاول .

٦

الوقت ساعة العصر . الشوارع شبه خالية من حركة الإنسان ، وقلبي يخفق ، عيني ترف ، خطواتي تتجه صوب حديقة مجاورة

، سمات الحيرة تعلوني .. والقلق يركبني ويبدو على أعضائي علانية أشعلت لفافة تبغ علّي اخفي معه اضطرابي حيث بدأت المسافة تتلاشى بيني وبين فتاتي القابعة إلى جانب شجرة . هي .. ليست هي .. هي ...؟؟؟

وقفت تحت فيء شجرة قريبة من شجرتها .

أدارت رأسها . جحظت عيناي .. توسعتا . قلبي هبط كأنه وقع على الأرض وتمتمت مـ .. نـ .. ى !!!

وبعجالة قالت وهي ترنو حولها : هس .. أرجوك .

غرف للإيجار

لقد نفذ ما خزنته النفس من الصبر . أنا الآن في شرخ الصبا ، وأمامي مشوار طويل .. طويل من الكفاح .
لقد أخرجني أبي من المدرسة ، وفرحت لذلك لأنني سأعمل وأكوّن نفسي . نعم سأترك لهم البيت القذر ، البيت المسكون ، البيت المسحور . وأحس بالإستقلال ولو لمرة واحدة . لا مدرسة لأخاف عليها ولا من يحزنون ولكن قبل كل شيء لا بد من ايجاد غرفة وعمل ؟

* * *

الآن بعد أن استأجرت غرفة . لا بد من العثور على عمل ، أي عمل . في المقهى ، في المطعم ، في المكتبات . وأدور في السوق بحثا عن عمل .
- أنت يا .. لم لا ترد ؟!
وينقطع حبل أفكاري

- نصف الألف خمسمئة ..

ألتفت إليه : مشاغل المعيشة .

- خير ؟

وهنا همت أقص له حكايتي بحذافيرها . فهذا الرجل الذي يكلمني (سوقي) ويعرف خير الأعمال وبعد أن أنهيت القصة قال لي : أتقول استأجرت غرفة عند أم .. ؟

- نعم

ولمحت على وجهه علامات الدهشة . علق سيجارة بين شفتيه وناولني واحدة ، ثم أشعل سيجارتي قبله وهمهم يقول : ما رأيك بدراجة نارية ؟

- موافق . لكن من أين الدراجة يا محمود ؟!

وخبط بكفه على صدره قائلا : محسوبك يشتريها ، وأنت تشتغل .

* * *

أقفلت باب غرفتي وخرجت حسب موعد محمود لي نهار البارحة . وقفت في موقف " النقل الداخلي " رجل ذقن . طويل القامة حليق الذقن مني وقال بلهجة رجال الأمن : أعطني هويتك ؟!

- من أنت . ولم الهوية ؟؟

- قلت أعطني هويتك يعني أعطنيها

وقلت بشيء من الانزعاج : إن الأنبياء عندما أرسلوا قالوا : نحن أنبياء .

- وماذا تفعل في بيت أم .. ؟

- استأجرت غرفة هناك .

وحدق الرجل إليّ ، ثم مضى دون أن ينظر إلى هويتي .

عندما وصلت إلى السوق كان محمود ينتظرني أمام وكالة الدراجات النارية ورأسا دلفنا إلى الوكالة .

* * *

خمسة أيام أمضيتها في الترويض على الدراجة حسب تعليمات محمود وفي اليوم السادس صارت جاهزة تماما للعمل .

الدراجة الجديدة مثل عروس ليلة الدخلة . من خلالها سأقتل الفراغ وأتعرف على كل القرى والمناطق . ياه .. كم أحس بحرية وأنا أقود يا أيتها الدراجة الجميلة . من كان يصدق أن أركب دراجة من نوع (يامها) ثمنها سبعة آلاف من الليرات السورية !!

أحدهم يؤشر لي . أتوقف على يمين الطريق .

الرجل يهرول إلي : بكم توصلني إلى قرية " جاغر بازار " ؟
- بأربعين ليرة
يرفع ساقه ويعتلي ظهر الدراجة قائلا : توكل على الله .

* * *

بينما كنت أدخل الدراجة إلى الحوش سمعت أم .. تقول من الشباك : تعال وأشرب فنجان قهوة معنا أوقف الدراجة أمام باب غرفتي ودخلت مستأذنا بطرقه قالت أم .. وهي تنظر إلى امرأة نحيلة كانت تقرفص إلى جانب المدفأة : هذه أم الهول .
- أهلا بأم الهول
وصرت أختطف النظر خلسة من جسد هذه المخلوقة امرأة تأكل لتسمن ، وتشرب لتسمن ، وتحكي لتسمن وتسمن ، وتسمن . وعلى رأي جدتي (نحن نأكل وهي تسمن) . قلت مازحا : كم وزنك يا أم الهول ؟؟ وتولت المرأة موجة حادة من الضحك المجلجل بذلك استطاعت أن تتهرب من الإجابة ولو من باب المزاح فقالت :
أأنت متزوج يا ابن أخي ؟
- عازب والحمد لله

وتدخلت صاحبة البيت كأنما تمهد لشيء : في حوشي خمس غرف فيهم ثمانية شباب . لكنك – والله يشهد – أحبهم على قلبي !
فرجعت المرأة النحيفة إلى الحديث وقالت : عندي بنت تهبل لكن ثمينة ..
طرقات محمود الموسيقية حفظتها عن ظهر قلب ؛ لذا تراني أفتح الباب قبل أن أراه وأقول : أهلا بشريكي !
في هذه المرة كان شريكي العزيز يحمل بيديه الخمرة .. دهشت لذلك لكنه قال : لا تخف حتى صاحبة البيت ستشربها .. اشرب يا رجل .. اشرب ، الدنيا بلا شراب خراب .

- وكيف ؟!
- لا يمكن لك أن تكتمل إن لم تشرب حليب السبع .

واستطرد كمن يود أن يلبي دعوة : والآن لنسهر في غرفة أم .. والحق صعقت لذلك تماما فكيف لهذا الأحمق أن يجرؤ على مثل هذا الطلب .

- هه .. ؟ أحك .
- لن أسهر . أما أنت فحر .

وفعلا راح يطرق الباب بصوت مرتفع ويدخل الغرفة بشكل عادي جدا !!

الساعة نحو الحادية عشر ليلا ، وامرأة تعيش بمفردها ، ورجل خبيث يدخل عليها .

أمعقول أنه .. ؟! أو المرأة النحيفة ..

- عندي بنت تهبل .. لكن ثمينة .

ماذا قصدت تلك البلهاء ؟ . لابد من التأكد (فبعض الظن إثم) سوف أتلصص عليك يا محمود من فتحة المفتاح . وضعت عيني على الثقب . العمى .. لم أر سوى العتمة ، ولم أسمع غير صوت رقيق لا يشبه صوت أم الهول ولا أم .. !!

* * *

قالت لي أم .. : تعال أم الهول تصيحك .

وكانت أم الهول تجلس كما رأيتها في المرة الأولى إلى جانب المدفأة وترشف القهوة الساخنة .

- هل لديك سجائر ؟

مددت يدي إلى جيب قميصي ورميت علبة السجائر أمامها . وفي هذه الأثناء كانت أم .. تناولني فنجانا من القهوة وكذلك .. دون سابق كلام رأيت المرأة النحيفة تنفجر بضحك عميق وطويل فأخذ

جسمها النحيف كله يرتجف مع الضحك أطلقت ضحكة صبيانية قصيرة ، متظاهرا بأنني أشارك هذه المجنونة بالضحك المقدس الذي يأتي عفويا في بعض المواقف الإنسانية ولم يكن أمام أم .. إلا أن تشارك في الضحك الذي جاء في الأصل بدون سبب .

وقالت بصوت ضاحك : جزاك الله يا أم الهول .. خذي اقرأي فنجاني .

مدت يدها وألقت نظرة مطولة قعر الفنجان ، ثم رفعت رأسها بحركة العرافة المتمرسة وهمهمت : هناك غيمة سوداء تحجب عنك أشعة الشمس

نعم .. نعم .. وتقعدين في مكان بعيد عن الناس . الغيمة بعيدة عنك لكن فيئها قريب لذلك تلطخين وجه الفيء حتى آخر الفنجان !؟

وأعادت الفنجان على الفور قائلة : سوف ابعث لك حورية لتعرف قيمة أم الهول يا بن آخي .

* * *

لا مناص من هجران هذا البيت القذر .. لكن الملعون شريكي سيسحب مني الدراجة إذا ما أقدمت على ذلك ولحظتئذ سأرجع إلى البيت خائبا تائبا وهذا محال .

يا الهي كم تبدو الحياة بريئة وخجولة كبنت صوفي عجوز وكم نبدو أشقياء وليست هذه هي المصيبة بحد ذاتها المصيبة هي ترى يا أيتها الموسيقى إلى متى سنبتاع الخبرة مقابل أيام العمر ؟!

نحن يا سيمفونيتي الحزينة كنا ومنذ نعومة ضفائرنا بحاجة إلى أربع شموس كل واحدة تشرق من جهة وإلى تغيير الحروف الأبجدية من معجماتنا ، وأسماء الأيام والشهور من مذكراتنا ، وإلى تبديل اتجاه عقارب الساعة من ساعتنا المعلقة في الساحات الجديدة . طق .. طق .. طق .

من هذا الشيطان الذي يطرق الباب في ساعة العصر هذه ؟!

طق .. طق .. طق ..

أفتح شق الباب . أتسمر . عينان سوداوان كمحيط عميق . بسمة كشمس الشتاء وحال العباد . شعر طويل يهفهف على كتفين عريضتين . وصدر بارز كبياض الثلج الشامخ فوق القمم و..

- ألن تأذن لي بالدخول ؟!

- لا .. ليس قبل أن أقف عشر دقائق احتراما لهذا الجمال الخرافي .
- كما تريد !!
- تفضلي يا سيدتي إلى أي ركن تستريحين فيه ، على السرير ، على الكرسي الدوار ، على الوسادة ، على الطاولة . أما أنا فسأحضر لك زجاجة من " الكازوز " المثلج من براد جارنا .

دفعت الباب بهدوء : ما هذا ؟!!

- كما ترى .. إنه جسدي .
- وما هذا الجسد المجنون . الرائع . المخيف . الأنيق . ولأول مرة بصري يخترق الحدود المحرمة . الفتاة راحت تسترخي على السرير .
- تعال يا أهبل . كل هذا الجسد ملكك اليوم .

" امنحيني شيئا أضمه ،
شيئا يبقى أكثر من اللذة ،
شيئا يدوم ولو أتى عبر الألم "

* *

*

الصباح رائع هذا الصباح
والدروب رائعة عندما يعلوها غبار الدروب .
ومنظري يلفت الأنظار في الأحياء الشعبية لا بد من العثور على غرفة مهما كان الثمن !
في حي (العزيزية) الغرف متوفرة . أدخل بدراجتي إلى حي (العزيزية) أدور في شوارعها . أسأل الأطفال . أخفق من سرعة الدراجة . أوقفها أمام أحد البيوت . أحدق بإمعان في عبارة كتبت بالقلم الأحمر العريض " غرف للإيجار " .

أحلام سعد

بهمس خفيض تحدثها يا سعد . تحدثها عن مدينتك المطلة على شواطئ الأحلام .
عن ورودك الناضجة أبدا ، والينابيع التي لا ترضخ إزاء أمواج التلوث . ثم بعد دموع وتوسل وشقاء تأخذها إلى مدينتك الجميلة ، مدينتك الحلم .
هي تغمرك بالقبلات وتقول : سأقاسمك كل شيء يا سعد ، حتى الهواء الذي تستنشق والتبغ ، والجنون ، وتقول : الآن يا بسمة لا اشعر بالخوف من المجهول !

٢

في صحن الباحة تلمحها ..
بسمة بلحمها ودمها . تدنو .. تدنو . تهتف بصوت خافت : بسمة ؟ – : ماذا تريد يا سعد ؟؟
بغض الكلام في سقف حلقك : يا أبله . ها أنذا أمشي مع حبيبتي برأس مرفوعة أمام طلبة المعهد أجمعين !

تتمتم في فرارة نفسك .

تقول بسمة للمرة التالية بريق جاف : تكلم يا سعد .. ماذا تريد مني ؟!

أتكلم يا بسمة .. أبوح بكلام العالم كله وأنبياء العشق ! ولكن .. ؟

نظرات الطلبة ترمقني من كل الجهات .

تستأنف القول في سرك .. وتقاطعك : أسرع يا سعد موعد المحاضرة قد حان . تخطو .. والنظرات تحاصرك . الوشوشات تقع لهيبا على أذنيك . ولأول مرة تخونك أدراجك يا سعد ، تخونك وأنت بأمس الحاجة إليها . مرارة الهزيمة تتولاك .. في وجه اللا شيء تبصق بازدراء ، ورعدة غريبة تعصف بك ، تدفعك نحو الأمام .

تدلف إلى القاعة . يخلع المحاضر نظارته من فوق عينيه : لم تأخرت يا سعد ؟

لم ترد على سؤاله . كان بصرك يختلس النظر من بسمة وريقك يبهم أبواب الكلام .

يضع المحاضر نظارته على عينيه ويطلق زفرة :

اجلس يا حضرة الـ ...

تحس بالأرض تلتهم نصفك . ينضح العرق من جسدك بغزارة ونظرات بسمة تمتد كالإبر إلى أخمص قدميك .

يصيح المحاضر مقطب الجبين : أجلس يا سعد .. بلا جنون !
كما ممثل هزلي تتسمر أمامهم مقشعر البدن ، أشعث الشعر ، جهم المحيا .
من بين الجموع ترميك بسمة بنظرة احتقار وخيبة . تثير جنون جنونك . تنفجر بصرخة مؤلمة ، يطفر لعابك إثرها إلى وجوه الطلبة ، وتعدو بحركة عفوية متعثرا بخطواتك !!
وأنت تهرع صوب المجهول يا سعد كانت مدينة الأحلام تستقبلك برحابة صدر .
استلقيت تحت ضوء القمر تستعيد أنفاسك .
تنفض عنك غبار التعب ، وبدأ الحبور يغمر وجهك يا سعد حين جاءت بسمة ملبية دعوتك بسرور !
بسمة بعينيها الناعستين النائمتين ونعومة نبراتها تسبح بين أجواء مدينتك وتستمع بأنسام عليلة . ويا سعدي تداعب شعرها برفق .

- أنا بسمة يا سعد ؛ بسمة حياتك وعمرك فتمتع بعبيري واسبح في بحوري وحلق في أجوائي كما تريد .
- عالم متكامل يا سعد . عالم بشمسه وقمره وتزحلق نجومه يزور مدينتك ، ويستسلم بين ذراعيك . برخاء ويخلع أوراق الأسفار

الشاقة . برخاء أكثر تعيد الأوراق إلى شجرة الربيع العارية فصل الربيع .

- يعيدها . تعيدها و .. أخيرا يعجبك أن تراه يتراقص ثملا ثم يتسمر في مدينتك مثل تمثال جميل .

٣

في الغداة تسللك إلى المعهد . وأخذت الوشوشات تأخذ مجراها إلى أذنيك !

مسكين سعد .. جن سعد .. البارحة سعد . اليوم سعد . سعد .. سعد ..سـ ..عـ ..د .

وتجهش بكاء يا سعد : أين أنت الآن يا بسمة لم لا تسخرين مني .. !!

وتمشي كئيبا .. تبلغ قاعة المحاضرات . وحدها بسمة تسترخي على مقعدها في جوف القاعة الخاوية من حركة الإنسان . دون سلام ترمي جسدك المنهوك على مقعدك تراقب صراع الوقت والصمت . الصمت الدفين هكذا كما في مدينتك يلتهم الوقت بشراسة !

القاعة تبتلع الطلبة ، تكتظ بهم وأخيرا يسلم المحاضر جسده لثغر القاعة بوجوم . فتعلو وجهك سمات الحيرة ، وربما لذلك لم تنهض احتراما لحضوره أو بالأصح احتراما للمحاضرة التي سيلقيها بعد قليل .

رتب المحاضر أوراقه ونظرك راح شطرها همهم المحاضر بلهجة الأستاذ العتيق :

" .. لقد عرفنا فيما سبق أن التخيل المرضي يتميز بالحدة .. " .

كدت تنفجر بضحك هستيري طويل . لكنك تمالكت زمام نفسك حتى توارى عن سمعك صوته تماما . تمتمت : من يسبح في عيني بسمة ويستمتع بصوتها الحنون ينسى نظراتك الخلفية وحركاتك الآلية .

في هذه الأثناء كانت بسمة تلهث على كتفيك مثل كلب ظمآن . وكنت تعيش أجمل لحظات الهيام والنجوى والعناق . بسمة في مدينتك – مدينتها – تغدو كتلة من الأرق والعذاب !!

تنهض يا صاحبي محتقرا إياها . لكنها تسحبك من شعرك متوسلة : أتوسل إليك يا سعد احك لي قصصا مسائية هادئة .

تسحب جسدك ثانية .. ثالثة .. رابعة .. تسحبك .. تسحبك .. تسحبك .. ؟!

وللمرة الأولى مددت يدك وصفعتها ليصرخ المحاضر قائلا : " ..
وحلم اليقظة بناء عالم أحلامي جديد مغاير للواقع .. "
وما أن رجع صوت المحاضر إلى مجراه حتى كنت تبحث عن بسمة في أرجاء مدينتك دون أن تراها في هذه المرة !!
رفعت رأسك .. لا أحد في القاعة .. وحدها بسمة كانت تقف إلى جانبك وللمرة الأولى بادرتك بالكلام قائلة : انهض يا سعد فقد انتهت المحاضرة .

صمت القبور

" أما أنا فأقول لكم كل من ينظر إلى امرأة ويشتهيها فقد زنى في قلبه "

(إنجيل متى ، الإصحاح الخامس ٢٨)

أيها القادم من مدائن الشمس والغبار
أيها الشقي .. المتمرد .. المسكين
أيها المحاصر برذاذ الدموع والموسيقى
كم مرة خطفتها من لفائف النوم ؟
كم مرة قبلت يديها .. خديها .. نهديها ،
وقذفت بها في جحيم لا يطاق ؟؟
ومرة صفعتها بظاهر يدك ورحلت عنها .
نزعت رائحتها من جثتك ، خلعت نبراتها من أذنيك ، مسحت بصماتها من خديك .

نفذت ما في دماغك وهرولت إلى عالمك الجديد – عالمها البعيد .
لم يبق منك إلا نسيمات من الذكرى غدت تتلاشى رويدا .. رويدا
في غربتك صرت تنشر ثيابك الجديدة على شرفة الحاضر الزاهر .
كان كل شيء قد تم ، تم ، تم ، لقد غدت هاجعة مترسبة في زاوية
من زوايا ماضيك الحافل السافل .
أجل كان كل شيء قد تم لولا أن روحك الملعونة من جديد عادت
تنبش بين صفحات أيامك المنصرمة
رغم المسافات رغم كل شيء
وهبت عاصفة على ثيابك الجديدة ، وأخذتها إلى حيث لا تدري
ورجعت .. رجعت إلى المسكينة . لم تدعها تكمل نومها .
لم تدع المقل الحبلى بالانتظار تستريح من السهر قليلا .
قالت لك بالحرف الواحد : لن أعطيك جسدي ياذا الروح الملعونة
سأنتقم منك ومن شبحك وبفرح سأموت .
ولما غادرتها كانت الشمس تلملم ثياب عرسها من فوق الأسطحة
معلنة للناس عن أول شهيدة .. عن أول فقيدة .. عن أول نبية لا
أغنام
لديها ولا قرآن .

* * *

دسست جثتك تحت البطانية ، وعقب صراع وآهات ، وأشباح بدأ جفنك يرف ..

اللعنات تخترق أذنيك . النظرات تفقأ عينيك .

والدموع تنغرز كالإبر في جسدك

وكغريق ثمل صرت تعوم في فيضان من الدموع

تلاحقك السباب ، واللعنات ، وشبح الشهيدة ..

يضيق بك النفس .. تغدو فريسة للأمواج تقذف حيثما تشاء

وكعجوز ملسوع تستفيق . لتحاصرك الأشباح بكل عنفوان . تحلق براجمها حول رقبتك وتضغط حتى تنبجس عيناك بدموع غزار

ويفتر ثغرك عن طرف بسمة عجيبة .

سيمفونية الصمت

عمرك الآن ربع قرن من الزمن . ومن المعيب جدا أن تعمل في بيت
للدعارة بعد هذا العمر .
شردت بذهنك .. وخطوة بعد خطوة ابتعدت عن بيت الدعارة الذي أمضيت في خدمته خمسة عشر عاما .
أحداق المارة ترمقك ، أناملهم تشير إليك ، أفواههم تبصق سخرية . دخلت غرفتك ، تمددت على الأرض العارية تستمع برطوبة الأرض . تناهى صوت الباب . سحبت الخيط المربوط بقفل الباب .

- أعطني أجرة الشهر .
- مددت يدك . ناولتها ورقة نقدية حمراء فأوصدت الباب خلفها بهدوء وانصرفت .

* * *

صباحا طلعت ، زرت الأماكن التي لم تزرها ، ثم سبحت وضحكت ، لعبت ، وقعدت في مكان أنيق مائدتك امتلأت بأشهى المأكولات وأغلى المشروبات وصوت " أم كلثوم " يملأ أوصالك بالنشاط . في هذه الأثناء وقع بصرك على إحدى القابعات بمفردها على مائدة تماما كما أنت . الفتاة الشقراء شدت بصرك إليها ، ولأول مرة في تاريخه قلبك عرف العشق فخفق خفقة لم تألفها من قبل . وأنت يا من عملت خمسة عشر عاما في بيوت الدعارة تأتي وتعشق بعد موقفك العدائي من كل حواء

دموع ساخنة انزلقت إلى أرنبة أنفك ولأول مرة شعرت بأن (أم كلثوم) تغني نيابة عنك وتعبر عن مشاعرك وصرت تدندن معها : (طول عمري بخاف من الحب .. وأعرف حكايات مليانة آهات ودموع .. طول عمري لا أنا قد الشوق وليالي الشوق .. ولا أنا قد عذابه .. وقابلتك أنت لقيتك بتغير كل حياتي .. معرفش زاي حبيتك . من همسة حب لقيتني بحب ..)

وشردت مع الغناء لكنها رفعت كأس (البيرة ؛ وأوقفتك . فرفعت كأسك وبدون أي تسويف نطت إلى جوارك وقالت : أنظر يا عزيزي لقد تزوجني فيما سبق أربعة رجال ولم أصلح للأمومة فهلا أردتني ؟؟

قلت وقد وضعت كفك على ظاهر كفها : لقد عملت خمسة عشر عاما في بيوت للدعارة . لا أهل لي ، ولا أصدقاء ، ولا سمعة طيبة
مدت يدها إليك وبصوت مرتفع قالت : إذا اتفقنا .

* * *

الآن صرت مسؤولا عن امرأة . عن طعامها ولبسها و.. وأنت تفتش عن عمل يقول لك أحد معارفك : اشتغل في الكـ .. يا زفت . يجن جنونك .ترفع قبضتك وبكل قواك تلجمه .. يقع .. تنط إليه وتفرغ غضبك في وجهه وتجوب الشوارع . تسمع العبارة ذاتها حتى من الأطفال والعجائز . تلملم أذيال غضبك وتقرر الرحيل عن مدينتك الجميلة . عن الأزقة الشعبية ، والمسكينة وعدتك بأن تمضي ما تبقى من عمرك معك .

* * *

المدينة الجديدة . عالم جديد بالنسبة لأمثالك لذا جددت كل شيء فيك وكنت في الصباح تقرأ الجرائد الصباحية وحتى زوجتك كانت تطلب منك بين الحين والحين أن تأتي ببعض الكتب الأدبية . هكذا .

حياتك تغيرت وحتى شكلك تغير

" بيت ، شغل محترم ، مكتبة صغيرة ، زوجة ، سمعة طيبة ها هي أحلامي تحققت ..

قطع تفكيرك بصوته الغليظ قائلا : لملم الأغراض واغلق المقهى .. أنا ذاهب إلى البيت . – أمرك يا معلم .

عرجت إلى السوق لتبتاع الجرائد لزوجتك وأردفت الطريق إلى البيت .. ضغطت على الجرس . زوجتك على غير عادتها لم تفتح الباب ، ولم تتناول الجرائد

ضغطت للمرة التالية .. خبطت بكفك مرات ومرات ..

غريب

قفزت إلى سلم كان يتكئ على جدار مقابل . وضعته تحت نافذتك وصعدت . فوجئت بشعرها الكستنائي على أرض غرفة المطبخ .

هرولت مذعورا .. زوجتك الحنونة .. زوجتك المسكينة كانت تستريح على الأرض جثة هامدة غارقة بالدماء

صرخت .. بكيت .. زعفت ، وأيقنت أنها لن ترجع إليك ثانية .

* * *

بمفردك مثل قشة رمتها العواصف في كوخ عتيق تتأمل دروس الحياة ؟

غربة ، عزلة ، وحدة ، ولا شيء ينبض بالحياة من جديد لم تتوقف عقارب الساعة كما توهمت .

لم يجن العالم كما تخيلت ، ولم ينهض الموتى من مدافنهم مثلما تصورت . كل شيء على ما هو عليه .. منذ بدايتك وكل شيء هكذا .. سافرت .. عقلت .. كفرت .. تبت .. وكل شيء على ما هو عليه .

بين أربعة جدران تقبع وتلتهم الدخان بنهم . تفتح خزانة الكتب . كتب حبيبتك . لقد مر بصرها على كل سطر من سطورها . تقلبها وتعاود الترتيب فتمر الأسماء سريعة توقفك بعض الجمل :

" ما أعظم شقائي لأني ولدت عشبا فما أكاد أرتفع إصبعين عن الأرض حتى يأتي وحش مفترس حيوان مرعب ، فيدوسني بقدميه الواسعتين ، أما شدقه فمسلح برتل من المناجل الحادة يقطعني بها

ويمزقني ثم يبتلعني والبشر يسمون هذا الوحش خروفا ، وليس في الدنيا مخلوق أبغض منه " .

فيثاغورت .

" سوف يولد ، لقد ولد منا ، فمن لا يملك شيئا لا ينبغي شيئا ، إلا إذا تركنا له اللاشيء الذي يملكه " .

بيكيت

" ليست المسألة أنني لا أريد أن أحيا ، لكن الحياة كاذبة . إلى حد إنني حتى لو كنت محقا فعليّ أن التمس الحقيقة في الموت .. " .

هولان

تقفز إلى المرأة مثل قرد عجوز . وجه مستدير جهم ، عينان متورمتان أضناهما السهر ، شعر أشعث وسخ ، أنف أفطس علاه الغبار !!

تنفخ على الزجاج فتتراءى لوحة كاريكاتورية غزيرة المعاني . الساعة تدق . قلبك يهبط من مكانه . إنها الثانية بعد منتصف الليل .
تلف جسدك بلحاف معطر وتطفئ النور . أنفاسك تتسارع . تبلع جرعة ماء ، وتشعل الضوء . تحس بالجدران تحاصرك وتكتم أنفاسك . (يا إلهي) .
وتهرع خارج الغرفة وأنت ترتجف .
رأسك يهزه الدوار . جسدك يرتعش . دموعك تسيل . وتنشج بصوت مقهور : آه .. أين أنت الآن يا إلهام ؟ جسدك تحت التراب فريسة للحشرات الترابية وروحك في السماء . وشبحك يلاحقني إلى كل مكان ورائحتك تملأ الغرفة .
وصوتك يصم سمعي ؟؟!!
فهل حقا تريني ولا أراك يا حبيبتي ؟؟!!
تمسح دموعك وبحركة آلية تتسلق الجدار . تتوقف على حافة السطح المرتفع وتطلق ضحكة هستيرية طويلة .. ثم رويدا .. رويدا يتهاوى جسدك على الأرض مخلفا وراءه صرخة مدوية كالعواء .

صور من حياة عذراء مجنونة

الظلام يستحم برذاذ المطر في " طشت " الحوش
وفي ركن منعزل تقبع قطة شقية على ذيلها
وفتاتنا العذراء المجنونة تغلق النافذة وتقتعد كرسيها الدوار –
العاطل ن الدوران
تنفجر الشحنة الكهربائية في كبد السماء فيهرع الظلام من حولها
ويرجع ، يهرع .. يرجع .. يـ ... يـ ..
تراقب المشهد بإمعان واهتمام وتقهقهه ملء شدقيها ينتشر الصوت
الهستيري في أنحاء الغرفة ، يصطدم بالجدران المكسوة بالظلمة ،
ويعود الصدى حاملا مئات الوشوشات والهمسات غير المألوفة .
رأسها يقع على ساعديها ويسترخي . جسدها يغور بين الظلماء
ويلفها صمت دفين

١

طفلة في ربيعها السادس تبكي عند عتبة الباب ، أبوها يخلع شعر
أمها قائلا : قلت لك ألف مرة لا تطلعي من البيت بغيابي .

٢

الأب منقوش الشعر . جهم المحيا . مقطب الجبين ، يرتدي بنطالا مرقعا ، وكنزة مقطوعة ، يدب بخفه على الأرض : أحمد .. تعال . تعال يا ولد

يخرج من غرفة .. يستطرد الأب في القول :

- ليش ما رحت على شغلك اليوم ؟
- يجيب بقليل من التردد والوجل : اشتر لي محلا
- تريد نهب شقاء عمري يا ولد ! ها أنا لم أشتر لنفسي ما تريد . أم أنت أحسن من أبيك يا بن حليمة !
- الموت أفضل من المذلة يا أبي .
- أية مذلة يا غبي ؟؟

مذلة أن نشتغل عند من نقدر نوزنهم بأموالنا .

- يدفعه أبوه خارج البيت : لن تنام في بيتي بعد اليوم .
- تولول الأم ، تريد أن تعيده ،، يمنعها قائلا :

- كلامي يمشي على كل هذا البيت . (إن عجبكم كحلي تكحلوا وإن ما عجبكم ارحلوا) . بكرة لما أقع ما ينفعني إلا هذا الجيب ، هذا الجيب والقيامة من بعده .

٣

غرفة صامتة ، بين جدرانها فتاة في العشرين من عمرها ، وأخرى على مشارف الربيع السابع عشر ، الأم مطلقة ، الأخ الأكبر مشرد في دمشق .

- لم يحصل لنا هذا كله يا أختي ؟!
- إن أبانا لا يفقه من الأبوة غير أنه تسبب ذات يوم في انجابنا .

تقول الكبرى هذه الجملة وتنصرف إلى فراشها ..

وتستسلم الصغرى لنوم عميق .

تنقلب الكبرى يمنة ويسرة . تدندن كمن في حداد : أين مواطنك يا نوم ؟ أغلب رموشي المتعبة بحق صفاء هذا السكون . استحلفك بشيب أمي ، وبتجاعيد جبهة أبي ، وبدموع المعذبات في الزوايا الرطبة ، وبغناء البلابل في الصباحات الربيعية .. أن تنقذني من هذا العذاب ولو ساعة واحدة .

يا إلهي وإله الكون الفسيح قلبي يهبط ، والخوف يرمي بثقله عليّ .
لا أنا في الأرض ولا في السماء
يا من ترقدون على بطونكم .. يا من ترتجفون وتبكون وتغنون ..
يا من تنامون على ظهور زوجاتكم وتأكلون وتشربون يا أصحاب الكروش الكبيرة والرؤوس الضفيرة .
إني أتعذب .. أتعذب .. أعذب ولا يرحمني النوم

٤

- بعد قليل سيجيء عمر ويخطفني
- لكنك الصغرى
- ولو ..
- أبوك سيذبحك إذا ما أقدمت على ذلك
- لا تصدقي .. لا يذبحني ولا حتى في أحلامه ، ولا يجرؤ على ذلك .
- من أجلي .. أرجوك ؟
- سأتزوج خطيفة غصبا عنه ما دام قد رفض عمر دون أخذ مشورتي .

٥

كل شيء يخرج من جلده . لم يعد من تفضفض له عن مكنونات نفسها . الساعة المعلقة في صدر الحائط تشير بإصبعها الطويل إلى السادسة وبالقصير إلى الواحدة . تغرز أصابعها في ثنايا شعرها .. فتنبجس الدموع من عينيها المتورمتين . يعصف بها الغضب يقشعر جسدها ، وتنهض فورا . يستفيق الأب إثر سماع خبطة الباب . يحمل عصاه ويركض خلفها في الشوارع المعتمة : بنت الحرام جنت وتريد أن تجنني

٦

بجنون تتراقص في عرس مجاور .. عازف (الطنبور) وإلى جانبه عازف (الدربكة) يقبعان وسط دائرة واسعة من الرجال والنساء . تهرول نحو المغني .. الجميع يصفق ،

- عن لنا (بوكي دلالي) يبتسم لها المغني . أحد الشبان يقف بجوارها يرفع فوهة مسدسه إلى السماء ، يطلق تسع رصاصات ،.. ويحلو الرقص .. ، يتجاذب الشبان والعذارى . ومن خلف رأسها تقف إحدى الفتيات ، وتطلق زغرددة مطولة ، تتحمس

للفكرة ، وتطلق واحدة فاشلة فتعلو شفاه الحضور ضحكة خفيفة موحدة سرعان ما تتلاشى مع سماع صوت خشن يتناهى من بداية الشارع .

- ولما وقع بصرها عليه قررت أن تستأنف الرقص بصخب أعظم ، أحد الحضور قال بصوت شبه مسموع :
- لا بد أن تقع مشكلة بين وحيد وابنته في هذه الأمسية . إنه يتقدم بخطا وثيدة .. وهي ترقص غير مبالية

صاحب العرس يهرول ، فيبعدها عن الساحة وهنا يستلمها الأب ، يدفعها بسرعة إلى باب الدار :

- " لقد أنذرتك وقد أعذر من أنذر " .

تدلف إلى غرفتها . ويحضر الأب عصاه .

بعد قليل سوف تطلع حافية القدمين وترفعهما في وجهه ، ينتظر .. ينتر .. يـ .. ن ..

- عجلي يا بنة الحرام ..

وتستلبث على غير عادتها بتاتا . يرفع قدمه ويصفع الباب ، لا فائدة ، يخبط بعصاه على الحائط فيتساقط بعض الطين والقش من السقف ، يصرخ : افتحي .. وإلا كسرت الباب .

قليلا .. قليلا ينفتح الباب وتتراءى أمامه عارية تماما

أنظاره تتعلق في الجسد فيعود إلى ميلاده الأول ..

يصرخ : ألبسي ابنتك ثوبا يا حليمة .

تقول بزهو : هذا جسدي كله أمامك ، لم تعد تخيفني .

يردف : وحدك يا حليمة على علم اليقين من ظهر من هذه الشقية ؟؟

تقول بصوت متهدج : أتحداك يا أبي .. تعال .

يستطرد الأب : في صباها أعطتني حليمة جسدها .. والله يعلم لمن أعطته بعد الزواج ؟

- اضرب .
- ليست ابنتي
- تلسعه بنظرة مخيفة كأنها الأفعوان .. يلهث
- لم أعد أخافك يا أبي ..
- لست أبـ ...
- كيانه يهتز بعنف .. الجسد .. حليمة .. أبي .. ثوب .. عصا .. خيانة .. أبوها .. لا ..
- يرتعد بقوة وفجأة يرتمي على الأرض دون حراك ..

على أنغام تلك الموسيقى

عصر يوم ربيعي رطب رآها
ليل يوم ربيعي بارد مر بجانب منزلها
صباح يوم ربيعي آخر كان لا بد أن يراها .
ظهر آخر يوم ربيعي صار (حن) .
عصر يوم خريفي صامت رأته .
ليل يوم خريفي ساكن مرت بجانب داره
صباح يوم خريفي غائم كانت لا بد أن تراه ظهر آخر يوم خريفي قررت أن تجن
قرفص على تلة " جغجغ " يقذف حجيرات وسط النهر ، فتشكل فقاعات ودوائر تكبر .. وتكبر لكنها لم تلبث أن تزول . بصره كان يرقب المشهد حين وقع على سمعه صوتها : هل تعوقت ؟
ترك المشهد ودون أن يجيب نهض فنهض معه خمسة وثلاثون عاما من عمره وانتحيا جانبا بعيدا عن الأنظار . صارت تمسح دموعها بذيل قميصه ودموعه تنهمر وابلا على ثنايا شعرها .

- ليتني قدرت على شطب نصف عمري كي أماثلك في السن يا ليلى ؟

بريق جاف هتفت : أريدك كما أنت يا عماد .

- لكنك في ربيعك السادس عشر ؟!

صمتت " أحب الأرض تحت قدميه ، والهواء فوق رأسه وكل شيء يلمسه ، وكل كلمة يقولها أحب كل نظراته ، وكل أفعاله ، وأحبه بكل ما فيه وبمجمله " .

دفن كفه بين شعرها الأسود القصير وقبل أن ينبس قالت : ما أعجبك فيّ يا عماد ؟ مراهقة .. سمراء .. نحيلة كثقب الكبريت .. وسخة غير متعلمة ..

وبشوق الشباب العارم ضمها بكلتا يديه ، وهو يزداد حبا بها مع ذكر كل صفة من الصفات التي ذكرتها حبيبته ، وارتميا بعشق على أوراق الأشجار ، طاب لهما أن يموتا هناك لكن الشمس أخذت تختبيء خلف جبل عبد العزيز معلنة لحظة الفراق .

* * *

أشعل سيجارة .. استنطق المسجلة ، ومد يده إلى كتاب معنون بـ " رسائل العشاق " وبدأ يقلب الصفحات ...

- ماذا تريد من ليلى يا عماد . وما نهاية ذلك ؟؟؟

عرف القائل ما دهاه لذا استطرد يقول: أو تذكر قبل خمسة عشر عاما(...) كانت ليلى إذ ذاك ما تزال في بطن أمها ؟

وفجأة انقطع الحديث وراح بصره شطر الباب ..

ليلى كلها تقف أمامه .. ليلى بقميص النوم تدخل عليه !

- ما أتى بها هنا في هذا الليل ؟؟؟!

الهواء النقي يدخل الغرفة ويطرد الروائح النتنة .

قالت : عرفت بأنك لم تنم لذا جلبت لك تفاحة لتأكلها وتنام .

وهنا رجع ذلك الصوت إلى الحديث قائلا ...

زفرت ليلى ولم يأبه لذلك ! وبدأ الوقت يمضي سريعا دون أن يشعر به ودون أن ينظر إلى ليلى ثانية ولم يكن ليحس بشيء من حوله لولا أن تراءت في وسط الغرفة امرأة عارية تماثله في السن صاح خائفا : أنت ... نـ .. ت ..

- وكيف أنساك في يوم كهذا ؟!

- لكنها ذكريات تؤلمني !

- وفي نفس الوقت تسعدني !!

وتراجع مذعورا .. وتقدمت بجسدها العاري .

- ابتعدي . أتوسل إليك .

قالت والغضب يطفر من عينيها كالرعد :

سوف أخصيك وأخلع أسنانك .. أتريد خيانتي يا خائن !!

وأخذيتراجع لاهثا حتى حاصرته في زاوية

بكل فنون ابن أدم يحاول النجاة .. يحاول إبعاد أنملة واحدة عن حلقه .

- إنني أموت .. دعيني .. أتوب إليك .

- أنسيت ما فعلته بي يا جبان ؟!!

- لكنك تسرعت في عملية الانتحار .

- بل دفنت السر الذي يبرر قتل كلينا على يدي أبي .

- تقدمت لأخطبك لكن أباك رفضني ولم أخن ذكراك حتى الآن .

رنت في أذنيه قهقهاتها الهستيرية المخيفة :

أتظنني أجهل ما تفعله من بعدي ؟ .. هه .. هه .. هـ ... هو ... هي .. يـ .. يـ .. يـ ..

وتوارت في رفة جفن تاركة في سمعه الصدى والأسئلة استفاق على صوتها : ألم ينتبه تفكيرك بعد ؟ .

الصمت ، رائحة الموت ، غبار المقابر ، ومئات الأسئلة حملقت إليه والتعجب يبدو على وجهها علانية : أكثر من خمس دقائق أقف ولم تأذن لي بالدخول .

جفف بظهر كفه العرق الذي نضح من جبهته نطت إلى كأس الماء ... رشف جرعة وقال : لا بد من الفراق يا ليلى .. إنه الحل الوحيد !! لكلينا علاها احمرار ناري لكنها أجمعت أن تمسك زمام نفسها وترغمها على الهدوء . وبهذه الطريقة راحت ليلى تقبع في أحد أركان الغرفة دون تنبس ببنت شفة .

الوقت يؤخر رجوعها إلى البيت ، والليل يحط ويتربع كمن جاء من سفر شاق ، والصمت لما يزل سيد الموقف ويلتهم الوقت على نبضات قلبها

مدت إصبعها إلى آلة التسجيل فامتلأت الغرفة بالموسيقا . همهمت كمن يحاكي نفسه :

موسيقا عذبة .

هز رأسه ولم يحك .

- من هو الموسيقار الذي وضع اللحن ؟

رفع رأسه من فوق ركبتيه . تراءت أمام ناظريه كيوم التقاها عصر يوم ربيعي رطب تتضح أنوثة وسحرا .. تعلقت عيناه بعينيها هنيهة.

رفعت من صوت الموسيقا قليلا وبشيء من الخجل بدأا يرقصان على أنغام تلك الموسيقا.